أمير الشِّعر في العصر القديم (١)

الوجه في إفرادِ شاعرٍ أو كاتبٍ من الماضين بالتَّأليف أن تصنع كأنَّك تعيده إلى الدُّنيا في كتابٍ وكان إنساناً ، وتُرجعُه درساً ، وكان عمراً ، وتردَّه حكايةً ، وكان عملاً ، وتنقله بزمنه إلى زمنك ، وتعرضه بقومه على قومك ، حتَّى كأنَّه بعد أن خلقه الله خِلقة إيجادٍ يخلقه العقل خلقة تفكيرٍ .

من أجل ذلك لا بدَّ أن يتقصَّى المؤلِّف في الجمع من آثار المترجَم ، وأخباره ، وأن يحمل في ذلك من العنت ما يحمله لو هو كان يجري وراء ملَكيْ من يترجمه لقراءة كتاب أعماله في يديهما ... . ولا بدَّ أن يبالغ في التَّمحيص والمقابلة ، ويدقِّق في الاستنباط والاستخراج ، ويضيف إلى عامَّة ما وجد من العلم ، والخبر خاصَّةً ما عنده من الرَّأي ، والفكر ، ويعمل على أن ينقِّح ما انتهى إليه الماضي في أدبه ، وعلمه بما بلغ إليه الحاضر في فنِّه ، وفلسفته ؛ وذلك من عمل العقل المتجدِّد أبداً ، والمترادف على هذه الحياة بمذاهبه المختلفة ، يشبه عمل الدَّهر المتجدِّد أبداً ، والمترادف باللَّيل ، والنَّهار على هذه الأرض ، كلُّ نهارٍ أو ليلٍ هو آخرٌ ، وهو أوَّلٌ ، وكذلك العقول كلُّها آخرٌ من ناحيةٍ ، وأوَّلٌ من ناحيةٍ .

والتَّجديد في الأدب إنَّما يكون من طريقتين : فأمَّا واحدةٌ ، فإبداعُ الأديب ، الأديب الحيِّ في إثارة تفكيره بما يخلق من الصُّور الجديدة في اللُّغة ، والبيان ، وأمَّا الأخرى ؛ فإبداع الحيِّ في آثار الميت بما يتناولها به من مذاهب النَّقد المستحدثة ، وأساليب الفنِّ الجديدة ؛ وفي الإبداع الأوَّل إيجاد ما لم يوجد ، وفي الثَّاني إتمام ما لم يتمَّ ، فلا جرم كانت فيهما معاً حقيقة التَّجديد بكلِّ معانيها ، ولا تجديد إلا من ثمَّة ، فلا جديد إلا مع القديم .

---

(١) (المقتطف) : وضع الأديب محمد صالح سمك رسالةً قيِّمةً في امرىء القيس أمير الشِّعر في العصر القديم ، تقع في نحو مئتين وخمسين صفحةً . سلك فيها مسلكاً طريفاً ، وحلاَّها بمقدِّمةٍ بليغةٍ للأستاذ الجليل مصطفى صادق الرَّافعي ؛ فخصَّ المؤلفُ المقتطف بنشر المقدِّمة وبعض أبحاث الرِّسالة فيها طِبقاً لرغبتنا . (س) .

وإذا تبيَّنت هذا ، وحقَّقته ؛ أدركت لماذا يتخبَّط منتحلو الجديد بيننا ، وأكثرهم يدَّعيه شفاهاً ، ويتقلَّده زوراً ، وجملة عملهم كوضْع الزِّنجي الذَّرورَ[1] الأبيضَ (البودرة) على وجهه ، ثمَّ يذهب يدَّعي : أنَّه خرج أبيض من أمِّه ، لا من العلبة . . . فإنَّ منهم من يصنع رسالةً في شاعرٍ ، وهو لا يفهم الشِّعر ، ولا يحسن تفسيره ، ولا يجده في طبعه ، ومنهم من يدرس الكاتب البليغ ، وقد باعده الله من البلاغة ، ومذاهبها ، وأسرارها . ومنهم من يجدِّد في تاريخ الأدب ولكن بالتَّكذُّب عليه ، والتَّقحُّم فيه ، والذَّهاب في مذهب المخالفة ، يضرب وجه المقبل حتَّى يجيء مدبراً ، ووجه المدبر حتَّى يعود مقبلاً ، فإذا لكلِّ طريقٍ جديد ، وينسى أنَّ جديده بالصَّنعة ، ولا بالطَّبيعة ، وبالزُّور لا بالحقِّ .

إلا أنَّ كلَّ من شاءَ استطاع أن يطبَّ لكلِّ مريضٍ ، لا يكلِّفه ذلك إلا قولاً يقوله ، وتلفيقاً يدبِّره ، ولكن أكذلك كلُّ مَنْ وصف دواءً استطاع أن يشفي به ؟

وبعدُ : فقد قرأت رسالةَ امرئ القيس الَّتي وضعها الأديب السَّيِّد محمَّد صالح سمك ، فرأيت كاتبها ـ مع أنَّه ناشئٌ بعد ـ فقد أدرك حقيقة الفنِّ في هذا الوضع من تجديد الأدب ، فاستقام على طريقةٍ غير ملتويةٍ ، ومضى في المنهج السَّديد ، ولم يدع التَّثبُّت ، وإنعام النَّظر ، وتقليب الفكر ، وتحصين الرَّأي ، ولا قصَّر في التَّحصيل ، والاطِّلاع ، والاستقصاء ، ولا أراه قد فاته إلا ما لا بد أن يفوت غيره ممَّا ذهب في إهمال الرُّواة المتقدِّمين ، وأصبح الكلام فيه من بعدهم رجماً بالغيب ، وحكماً بالظَّنِّ .

فإنَّ امرأ القيس في رأيي إنَّما هو عقلٌ بيانيٌّ كبيرٌ من العقول المفردة التي خلقت خَلقها في هذه اللُّغة ، فوضع في بيانها أوضاعاً كان هو مبتدعُها ، والسَّابق إليها ، ونهج لمن بعده طريقتها في الاحتذاء عليها ، والزِّيادة فيها ، والتَّوليد منها ، وتلك هي منقبته ؛ الَّتي انفرد بها ، والَّتي هي سرُّ خلوده في كلِّ عصرٍ إلى دهرنا هذا ، وإلى ما بقيت اللُّغة ، فهو أصلٌ من الأصول في أبوابٍ من البلاغة ، كالتَّشبيه ، والاستعارة ، وغيرهما ، حتَّى لكأنَّه مصنعٌ من مصانع اللُّغة لا رجلٌ من رجالها ،

---

(١) « الذرور » : ما يذرُّ في العين ، أو على الجرح من دواءٍ يابس ، دقيق ، أو على الطعام من ملح مسحوق .

وكما يقال في زمننا في أمم الصِّناعة سيارة فورد، وسيارة فيات؛ يمكن أن يقال مثل ذلك في بعض أنواع البلاغة العربيَّة : استعارة امرئ القيس ، وتشبيه امرئ القيس .

ولكن تحقيق هذا الباب ، وإحصاء ما انفرد به الشَّاعر ، وتأريخ كلماته البيانيَّة ممَّا لا يستطيعه باحثٌ ، وليس لنا فيه إلا الوقوف عندما جاء به النَّصُّ .

ولقد نبَّهنا في (إعجاز القرآن) إلى مثل هذا ؛ إذ نعتقد : أنَّ أكثر ما جاء في القرآن الكريم كان جديداً في اللُّغة ، لم يوضع من قبله ذلك الوضع ، لم يجر في استعمال العرب كما أجراه ، فهو يصبُّ اللُّغة صَبّاً في أوضاعه لأهلها ، لا في أوضاع أهلها ، وبذلك يحقِّق من نحو ألفٍ وأربعمئة سنةٍ ما نظنُّ فلسفة الفنِّ قد بلغت إليه في هذا العصر ؛ إذ حقيقة الفنِّ على ما نرى أن تكونَ الأشياء كأنَّها قصَّةٌ في ذات أنفسها ، ليس في تركيبها إلا القوَّة الَّتي بنيت عليها ، فإذا تناولها الصَّنيع الحاذق الملهَم ؛ أضاف إليها من تعبيره ما يشعرك : أنَّه خلق فيها الجمال العقليَّ ، فكأنَّها كانت في الخلقة ناقصةً حتَّى أتمَّها .

وهذا المعنى الَّذي بيَّنَّاه هو الَّذي كان يحوم عليه الرُّواة ، والعلماء بالعشر قديماً ، يُحِسُّونه ، ولا يجدون بيانه ، وتأويله ، فترى الأصمعيَّ مثلاً يقول في شعر لبيد : إنَّه طيلسانٌ[1] طَبريٌّ ، أي : محكمٌ متينٌ ، ولكن لا رونق له ، أي فيه القوَّة ، وليس فيه الجمال ؛ أي : فيه التَّركيب ، وليس فيه الفنُّ .

والعقل البيانيُّ كما قلنا في غير هذه الكلمة : هو ثروة اللُّغة ، وبه ، وبأمثاله تعامل التَّاريخ ، وهو الَّذي يحقِّق فيها فنَّ ألفاظها ، وصورها ، فهو بذلك امتدادها الزَّمنيُّ ، وانتقالها التَّاريخيُّ ، وتخلُّقها مع أهلها إنسانيَّةٌ بعد إنسانيَّةٍ في زمنٍ بعد زمنٍ ، ولا تجديد ، ولا تطوّر إلا في هذا التَّخلُّق متى جاء من أهله ، والجديرين به ، وهو العقل المخلوق للتَّفسير ، والتَّوليد ، وتلقِّي الوحي ، وأدائه ، واعتصار المعنى من كلِّ مادَّةٍ ، وإدارة الأسلوب على كلِّ ما يتَّصل به من المعاني والآراء فينقلها من خلقتها ، وصيغها العالميَّة إلى خَلق إنسانٍ بعينه ، هو هذا العبقريُّ ؛ الَّذي رُزق البيان .

---

(١) « طيلسان » : كساء أخضر ، يلبسه الخواصُّ من العلماء ، والمشايخ ، وهو من لباس العجم (معرَّب فارسيٌّ) .

وللسَّبب الَّذي أومأنا إليه بقي امرؤ القيس كالميزان المنصوب في الشِّعر العربيِّ ، يبين به النَّاقص ، والواقي ، قال الباقلانيُّ في كتابه : (الإعجاز) : وقد ترى الأدباء أوَّلاً يوازنون بشعره (يريد امرأ القيس) فلاناً ، وفلاناً ، ويضمُّون أشعارهم إلى شعره ، حتَّى ربَّما وازنوا بين شعر من لقيناه (توفي الباقلانيُّ سنة ٤٠٣ للهجرة) وبين شعره في أشياء لطيفةٍ ، وأمورٍ بديعةٍ؛ وربَّما فضَّلوهم عليه ، أو سوَّوْا بينهم ، وبينه ، أو قرَّبوا موضع تقدُّمه عليهم ، وبروزه بين أيديهم . اهـ .

ومعنى كلامه : أنَّ امرأ القيس أصلٌ في البلاغة ، قد مات ، ولا يزال يخلق ، وتطوَّرت الدُّنيا ، ولا يزال يجيء معها ، وبلغ الشِّعرُ العربيُّ غايته ، ولا تزال عربيَّته عند الغاية .

وعرض الباقلانيُّ في كتابه طويلةَ امرئ القيس[1] ، فانتقد منها أبياتاً كثيرةً ؛ ليدلَّ بذلك على أنَّ أجود شعرٍ ، وأبدعه ، وأفصحه ، وما أجمعوا على تقدُّمه في الصِّناعة ، والبيان هو قبيلٌ آخر غير نظم القرآن ، لا يمتنع من آفات البشريَّة ، ونقصها ، وعوارها[2] ؛ فركب في ذلك رأسه ، ورجليه معاً فأصاب ، وأخطأ ، وتعسَّف ، وتهدَّى ، وأنصف ، وتحامل ؛ وكلُّ ذلك لمكانة امرئ القيس في ابتكاره البيانيِّ ؛ الَّذي لا يمكن أن يُدفع عنه ، ولمَّا انتقد قوله :

وبيضة خدرٍ لا يُرام خِباؤها   تمتَّعتُ في لهوٍ بها غيرَ معجَلِ

قال : « فقد قالوا : عَنَى بذلك أنَّها كبيضة خدر في صفائها ، ورقَّتها ، وهذه كلمةٌ حسنةٌ ، ولكن لم يُسبق إليها ، بل هي دائرةٌ في أفواه العرب » ألا ليت شعري هل كان الباقلانيُّ يسمع من أفواه العرب في عصر امرئ القيس قبل أن يقول (وبيضة خدرٍ) ؟

على أنَّ الكناية عن الحبيبة (ببيضة الخدر) من أبدع الكلام ، وأحسن ما يؤتَى العقل الشِّعري ، ولو قالها اليوم شاعرٌ في لندن ، أو باريس بالمعنى الَّذي أراده امرؤ

---

(١) أي : معلقته ، وهذه القصائد التي تُسمَّى المعلَّقات لم تكتب ، ولم تعلق كما سنبيِّنه في : تاريخ آداب العرب . (ع) .
قلتُ : انظر : الجزء الثالث . (س) .

(٢) « عوارها » : العوار : العيب .

القيس ، لا بما فسَّرها به الباقلانيُّ ؛ لاستُبدعت من قائلها ، ولأصبحت مع القبلة على كلِّ فمٍ جميلٍ ؛ هم يمرُّون في بعض بيانهم من طريق هذه الكلمة ؛ فيكنون عن البيت الَّذي يتلاقى فيه الحبيبان (بالعُش) وما يُتَّخذ العشُّ إلا للبيضة ، إنَّما عنى الشَّاعر العظيم : أنَّ حبيبته في نعومتها ، وترفها ، ولين ما حولها ، ثمَّ في مسِّها ، وحرارة الشَّباب فيها ، ثمَّ في رِقَّتها ، وصفاء لونها ، وبَريقها ، ثمَّ في قيام أهلها ، وذويها عليها ، ولزومهم إيَّاها ، ثمَّ في حذرهم ، وسهرهم ، ثمَّ في انصرافهم بجملة الحياة إلى شأنها ، وبجملة القوَّة إلى حياطتها ، والمحاماة عنها ؛ هي في كلِّ ذلك منهم ومن نفسها كبيضة الجارح في عشِّه ، إلا أنَّها بيضة خدرٍ ، ولذلك قال بعد هذا البيت :

تجاوزتُ أحراساً إليها ومعشراً عليَّ حراصاً لو يسرُّون مقتلي

فتلك بعض معاني الكلمة ، وهي كما ترى ، وكذلك ينبغي أن يفسَّر البيان .

* * *